﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

[القصص: 46]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

نفيُ شهودِ النّبيِّ الخاتَمِ لما غَبَر والتّأكيدُ بأنّ الوحيَ به نذارة لمن لم يُنذَرْ

لمّا نفتِ الآياتُ السّابقة العلمَ بتفاصيل ما حدث لموسى عليه السلام، بطريق الشّهود والحضور، وأكَّدت نفيَ سببِ العِلْم بذلك، في قوله: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾؛ جاءت هذه الآيةُ لتأكيد ذلك المعنى بنفي عِلْمه ﷺ، بنداء اللهِ تعالى لنبيِّه موسى عليه السلام، وعِلْمِه بالأحكام والمواعظ، والحلال والحرام، في شريعته، فقال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلطُّورِ﴾: (طور) أصْلٌ صَحيحٌ يدلُّ على مَعْنًى واحِدٍ، وهوَ الامْتِدادُ في شَيْءٍ مِنْ مَكانٍ أوْ زَمانٍ. مِنْ ذَلكَ طَوارُ الدّارِ، وهوَ الَّذي يَمْتَدُّ مَعَها مِنْ فِنائِها. ولِذَلكَ [يُقالُ] عَدا طَوْرَهُ، أي: جاوَزَ الحَدَّ[1]. والطّورُ: جَبَلٌ مَعروفٌ[2] واسمُ جبلٍ مخصوصٍ، وقيل: اسمٌ لكلّ جبلٍ، وقيل: هو جبل محيط بالأرض[3]. والمراد بـ ﴿ٱلطُّورِ﴾ في الآية: الجَبَلُ الذي بمَدْيَنَ الذي كلَّم اللّه تعالى موسَى عليه السلام عليه تكليمًا[4]، أو هو جبلٌ بَين مصر ومَدْين[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيان أنّ إرسال الرّسولِ رحمةٌ لمَن أُرسِل إليهم

يقول اللّهُ تعالى لرسوله ﷺ في هذه الآية: وما كنت يا محمَّد

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طور).
(2) الخليل، العين: (طور).
(3) الرّاغب، المفردات: (طور).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (طور).
(5) السّمعانيّ، تفسير القرآن: 3/ 297.

بجانب الجبل حين كلَّمنا موسى، وقلنا له: (خذ التّوراة بقوّة)، وما كنتَ معه حتَّى تشاهد ما حصل له، ولكنّا أوحينا إليك ما قضيناه في هذه المناداة؛ رحمةً منّا لِتُحَذِّرَ قومَكَ الّذين لم يأتهم رسولٌ مِن قبلك؛ ليَتذكَّروا ويَتَّعظوا ويُنيبوا إلى الله تعالى[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة عطف قوله: ﴿وَمَا كُنتَ﴾:

اشتراك الجُمَل في إثبات أنَّ علم النّبيِّ ﷺ كان وحيًا من ربِّه

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾، معطوف على ما قبله، في قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾، وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾، وسببُ وصلِ هذه الجُمَل بعضِها ببعض، هو اشتراكها في المعنى الجامع، وهو نفيُ وجودِ الرَّسول ﷺ مع موسى على جبل الطّور، ومع قوم مَدْين ونبيِّهم شعيب، وسوّغ هذا الوصلَ كذلك كونُ هذه الجُمَل اتَّفقت جميعها في الخبريَّة لفظًا ومعنًى. وتظهر بلاغةُ العطف في حشد هذه الجُمَلِ جميعِها، لتثبتَ عدمَ وجودِ أيِّ طريق من طرق معرفة النَّبيِّ ﷺ بأخبار مَن سلف من الأنبياء والأمم، غيرِ طريق الوحي من ربِّه ﷻ.

دلالة التّعريف في: ﴿ٱلطُّورِ﴾:

الطّور هو الجبل الغربيُّ المُقدّس، الّذي كلّم اللهُ عليه موسى تكليمًا

التَّعريف في قوله: ﴿ٱلطُّورِ﴾ تعريف للعهد، فالطّور جبل معروف ومعهود، وهو الجبل الغربيُّ المذكور قبل ذلك في قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾، وعُرّيَ عن الوصف هنا لأنَّه صار معروفًا[2]، وهو الجبل الغربيُّ المُقدّس، الّذي كلّم اللّهُ عليه موسى تكليمًا.

دلالة التّعبير بإداة (إذْ) الظَّرفيّة:

تحديد وقتِ النّداء أبلغُ في نفي وجوده ﷻ هناك

جاء التَّعبيرُ بالظّرفيّة في قوله: ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾؛ للتَّأكيد على نفي مشاهدة النَّبيّ ﷺ وسماعِه للحوار الّذي كان بين الله ﷻ وكليمِه

(1) حجازيّ، التّفسير الواضح: 20/ 51.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 133.

موسى ﷺ، فالتَّقييد بزمن النّداء أبلغُ في الإقناع بصدق نبوَّة محمَّد ﷺ؛ لأنّه ما حضر وقت نداء الله لموسى، ولا سمع أوامرَ الله تعالى له، فليس ذلك إلّا الوحي الصّادق.

سِرّ جمعِ هذه الأحوال الثّلاثة المنفيّة:

جمع القرآن الكريم بين الأحوال الثَّلاثة الواردة في قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ﴾، وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾، وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾؛ لأنَّ هذه الأحوالَ الثَّلاثة هي الأحوالُ العظيمة الَّتي اتَّفقت لموسى ﷺ؛ لأنَّ المراد بقضاء الأمر إنزالُ التَّوراة حتَّى تكاملَ دينُه واستقرَّ شرعُه، والمُراد بقوله: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾ أوَّلُ أمرِه، وبقوله: ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾ وسطُ أمرِه، وهي ليلة المناجاة[1]. والمراد من نفي هذه الأحوال الثَّلاثة التَّأكيدُ على كون سيِّدنا محمَّد ﷺ نبيًّا يوحَى إليه من الله تعالى، وذلك أنّه لا يمكن أن يَعْلَمَ بتفاصيل تلك الأحوال إلّا مَنْ أطلعه الوحيُ عليها.

جمع الأمور المقصودة في السّياق؛ لعِظَم أثرها، وكبر خطرها

دلالةُ حذفِ مفعول النِّداء في السّياق:

حُذِفَ مفعولُ الفعل نادى في قوله: ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾ لظهوره ووضوحه، وهو نداء موسى ﷺ، فقد ناداه ربُّه، وأنزل عليه التَّوراةَ عقبَ تلك المناجاة[2]، فطالما توفَّرت القرائنُ الدّالّة على المحذوف، يكون الحذف أليقَ بالمقام منَ الذِّكر والإطناب.

عند الظّهور والوضوح، يكون الحذفُ أليقَ منَ الذِّكْر

سِرُّ إسناد النِّداء إلى ضمير العظَمة:

إسناد فعل النِّداء إلى ضمير العظَمة في قوله: ﴿نَادَيْنَا﴾ دالٌّ على عظَمة المُنادي ﷻ، وإيذانٌ بأنَّ ما يُلْقى على المنادَى بلغ من جلال الشَّأن وفخامة الأمر درجةً استحقَّ بها الإسنادَ إلى ضمير العظَمة، وهي التَّكاليفُ الشَّرعيّة الّتي أُمِر بها موسى ﷺ ليبلِّغ بها قومَه.

عظَمة المُنادي سبحانه، والمُنادَى به

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 603.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 133.

وفيه دلالةٌ على أنَّ من قام بحقِّ تلك التَّكاليف سَعِد في الدّارين؛ لأنَّ الله لا يُسنِد إلى نفسه إلّا الجليلَ من الأمور الّتي تَسْعَد بها البشريّة.

سِرُّ إعادة النِّداء في: ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾:

لكلّ ملمَحٍ في النّداء دلالةٌ مختلفة، تُعَلِّلُ التّكرار في العبارات

ذكر القرآنُ الكريم فعلَ النِّداء هنا، في قوله: ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾ مع أنَّه تقدَّم ذكرُ النِّداء، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [القصص: 30]؛ لأنَّ النِّداء هنا غيرُ النِّداء الوارد في الآية السّابقة؛ فالنِّداءُ فيها كان لاستنبائه واصطفائه، وأمّا المذكور هنا فهو النِّداءُ لميقاته أربعين ليلةً، وإنزالِ ألواح التَّوراة عقبَ تلك المناجاة، وعليه فلا تكرارَ هنا مع قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾[1].

معنى الاستدراك في: ﴿وَلَٰكِن﴾:

من رحمة الله بالعباد، إرسالُ الرّسل بالهدى والرّشاد

الاستدراك في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ ناشئٌ عن دلالة قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ على معنى: ما كان علمُكَ بذلك لحضورك، ولكن كان رحمةً من ربِّك ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾[2]، فإنَّك لم تشاهد قصصَ الأنبياء عمومًا، ومشهدَ قصَّةِ موسى ﷺ خصوصًا في تكليم الله له، وإلقاءِ التّوراة إليه، ولكن أوْحيناها إليك، وقصصناها عليك؛ رحمةً من ربِّك لِتُخْبِرَهُمْ بقَصص مَنْ أُهْلِكَ بالعذاب، ومَنْ فاز بالثَّواب[3].

سِرّ التَّعبير بلفظ ﴿رَّحْمَةً﴾ منكَّرة:

تعدّدُ دلالاتِ لفظ الرّحمة يخدم السّياق، ويوسّع الدّلالة

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ ﴿رَّحْمَةً﴾ منكَّرةً دون غيرها؛ لاشتمالها على عِدَّةِ معانٍ تخدم السّياق القرآنيَّ، مع فخامتها وشرفها؛ فتُطلق على النُّبوَّة، وتُطلَق على القرآن، وعلى الرّسول ﷺ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 133.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 133.
(3) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 147.

وغيرِ ذلك من المعاني الّتي ذكرها الدّامغاني في الوجوه والنَّظائر، وهذا التَّعبير مناسبٌ لسياق الآية؛ لأنَّ القرآن رحمة، وإرسالُ النّبيِّ ﷺ رحمة، وكلُّ ما تعلَّق بمبعثه ﷺ رحمة، كما وصفه ربُّه ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: 107].

بلاغة الحذف في: ﴿وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ﴾:

تعدّد معاني الرَّحمة، واختلاف دلالاتها باختلاف تقديراتها

النّاظر في إعراب لفظ ﴿رَّحۡمَةٗ﴾ يدلُّ على أنَّه معمول لعامل محذوف، إمّا على تقدير (كون) محذوف يدلُّ عليه نفيُ الكونِ في قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾، والتَّقدير: (ولكن كان علمُكَ رحمةً منّا)، وإمّا على المفعول المطلق الآتي بدلًا من فعله، والتَّقدير: (ولكن رحمناكَ رحمةً بأن علَّمناك ذلك بالوحي رحمةً)، بقرينة قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا﴾. ويجوز أن يكون ﴿رَّحۡمَةٗ﴾ منصوبًا على المفعول لأجله، معمولًا لفعل ﴿لِتُنذِرَ﴾، فيكون فعل ﴿لِتُنذِرَ﴾ متعلِّقًا بكون محذوف، هو مصبُّ الاستدراك[1]. وعلى هذه التَّوجيهات، فإنّ الحذف حقَّق بلاغةً عاليةً، وهي التَّعجيل بالدُّخول في الرَّحمة، مع كثرة المعاني باختلاف كلِّ تقدير.

دلالة التَّعبير بـ ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾:

رحمة الله سبحانه، أكمل الرّحمات وأتمُّها

﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ ابتدائيَّةٌ، تُنبِئُ بأنَّ الله ﷻ، هو مبدأُ الرَّحمة الّتي اقتضت إرسالَ النَّبيّ ﷺ إلى النّاس، هدايةً وإرشادًا وتبصيرًا، وكون هذه الرّحمة مبدأُها من الله دالًّا على أنَّها الرّحمةُ الكاملة التّامَّة؛ إذ هي رحمة العظيم الخالق اللّطيف سبحانه.

بلاغة الإظهار في مقام الإضمار:

الرّحمة من مقتضيات الرّبوبيّة الغامرة للبشر بما يَسّر

عدلَ النَّظمُ الكريم عن الإضمار إلى الإظهار في قوله: ﴿رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾، ولم يقل: (ولكن رحمة منّا) لِما يُشْعِر به معنى الرَّبِّ المضاف إلى ضمير المخاطب منَ العناية به، عنايةَ الرَّبِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 134.

بالمربوب[1]، فمن مقتضيات الرُّبوبيَّةِ الرَّحمةُ بالعباد، ولا رحمةَ أعظمَ من رحمةٍ أخرج اللّهُ بها عبادَه من ظُلمات الشِّرك والجهل إلى نور الإيمان والتَّوحيد.

دلالة الإضافة في قوله: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾:

خـطـابُ النّـبـيّ بـالإضـافـة إلى الرّبوبيّة، تكرمةٌ وخصوصيّة

دلَّت إضافةُ الرُّبوبيَّة إلى ضمير الخطاب العائد إلى النَّبيّ ﷺ في قوله: ﴿رَّبِّكَ﴾ على عظيم فضله سبحانه بنبيِّه ﷺ، إذ جعله نبيًّا خاتمًا، هاديًا وبشيرًا، وأنزل عليه خيرَ كتبه القرآنَ، كما قال ﷻ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النّساء: 113].

دلالةُ اللّام في: ﴿لِتُنذِرَ﴾:

إنـذارُ الـرّسـل، قـطـعٌ لمـعـاذيـر المُنكرين

اللّام في الفعل ﴿لِتُنذِرَ﴾ للتَّعليل، فهي تكشف عن العلَّة الّتي من أجلها أوحى اللّهُ إلى النَّبيّ صلَّى الله عيه وسلَّم بالرِّسالة، فمِنْ أغراض بعثتِه صلَّى الله عيه وسلَّم إنذارُ النّاس وتخويفُهم من عقاب الله ﷻ، وتحذيرُهم من مآل إشراكهم به ﷻ، والإنذارُ دورٌ عظيم من أدوار رسل الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ﴾ [النّساء: 165].

سِرّ التَّعبير بالإنذار في: ﴿لِتُنذِرَ﴾:

التّعبير بالإنذار أنـسـبُ لـحـال الكفّار

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالإنذار، في قوله: ﴿لِتُنذِرَ﴾ دون غيره من وظائف الرُّسل كالبشارة مثلًا؛ لأنَّ الإنذارَ أوقعُ في القلوب، وأشدُّ تأثيرًا في النُّفوس، كما أنَّه أنسب بحال الكافرين الَّذين تمكَّن الشِّركُ في قلوبهم؛ فكان التَّعبيرُ بالإنذار هو المناسب لهذه الحالة الّتي هم عليها منَ الجُحود والكُفران.

دلالةُ التَّعبير بالمضارع ﴿لِتُنذِرَ﴾:

دلَّ التَّعبير بالمضارع في قوله: ﴿لِتُنذِرَ﴾ على تجدُّد الإنذار منَ النَّبيِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 134.

تـجـدّد الإنــذار لـطـفٌ بـالـمُـنْـذَر، وأملٌ في الانزجار

ﷺ لهؤلاء القوم كي يخرجَهم من حالة الكفر الّتي هم عليها، وفيه إشارةٌ إلى رحمة الله تعالى بهؤلاء القوم بتجدُّد الإنذار، وتنوُّعِ الآيات الدّالَّة على الطّريق المستقيم، طريقِ الإيمان بالله وحدَه سبحانه.

سِرُّ التَّعبير بلفظ ﴿قَوْمًا﴾ دون غيره:

إيثارُ اللّفظ المُعبِّر عنِ الحال مفيدٌ في الإبـانـة عـنِ المقصود

آثرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ ﴿قَوْمًا﴾ دون غيره، للدّلالة على اجتماعهم على الكفر والجُحود، وشِدَّتهم واستعلائهم على قبول الدَّعوة، بدليل أنَّه لمّا جاءتهم الدّعوة أعرضوا عنها، واستنكفوا أن يكونوا مؤمنين بها، وجمعوا كيدَهم ومكرَهم لحرب النَّبيِّ صلَّى الله عيه وسلَّم ومَنْ معه منَ المؤمنين.

دلالةُ النَّفي بالأداة ﴿مَّآ﴾ في السّياق:

إنـذارُ الجاهلين رحـمـةٌ مـن ربِّ العالَمين

القوم المقصودون بنفي النَّذير في قوله: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ هم قريشٌ والعرب، فهم المخاطَبون ابتداءً بالدّين، وكلُّهم لم يأتهم نذير قبل محمَّد ﷺ، وأمّا إبراهيمُ وإسماعيل ﷺ فكانا نذيرين حين لم تكن قبيلةُ قريشٍ موجودةً يومَئِذ، ولا قبائلُ العربِ العدنانيّة، وأمّا القحطانيَّةُ فلم يُرْسَل إليهم إبراهيمُ؛ لأنَّ اشتقاق نسبِ قريشٍ كان من عدنان، وعدنان بينه وبين إسماعيل قرونٌ كثيرة[1]. ويحتمل أن يكون المعنى: أنَّه لم يأتهم نذيرٌ في الفترة بين عيسى ومحمَّد ﷺ، على ما ذكره ابنُ عبّاس ومقاتل[2]. وهذا لا يتعارض مع قوله: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر: 24]؛ لأنّه يَعُمُّ من بوشِر منَ النّذر ومن سمع به، فالعربُ من الأُمم التي خلت فيها النُّذر على هذا الوجه؛ لأنَّها علمت بإبراهيم وبنيه ودعوتِهم، وهم مِمَّنْ لم يأتهم نذيرٌ مباشرٌ لهم سوى محمَّد ﷺ[3]. أو أنَّ المراد من قوله: ﴿وَإِن مِّنْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 134.
(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 6/ 296.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 357.

﴿أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر: 24] أنَّ نبوَّة محمَّد ﷺ ليست ببِدَع، فلا ينبغي أن تُنكَر، لأنَّ الله أرسله كما أرسل مَن قبله[1].

دلالة ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾:

نـفـيُ مـجـيء الـرّسـول من قـبـل، يـنـاسـبُ المِـنّـة بـرسـول الرّحمة

حرف ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾ صلةٌ، جيءَ به لتأكيد نفي مجيء رسولٍ إلى العرب، قبلَ النَّبيّ ﷺ، على ما تقدَّم تفصيلُه، والمبالغة في النَّفي هنا مبالغةٌ في تمام الامتنان والإنعام، من الله تعالى على هؤلاء المشركين، إذ لم يتركهم في ظلمات الكفر والبُعد عن وحي الأنبياء والرُّسل، بل أرسل فيهم رسولًا من أنفسهم يدلُّهم على سبيل النَّجاة.

دلالة التَّعبير بـ ﴿مِّن﴾ في: ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾:

ذِكـر مرحلة ما قـبـل الـوحـي، وهي الفترة الّتي ليس فيها نذير

دلَّ التَّعبير بـ ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ على الزَّمن القريب، وهو زمن الفترة، وأمّا ما قبل ذلك فقد كانوا فيه على دين إبراهيم ﷺ، حتَّى غيَّره عمرو بن لُحَيٍّ، فقد أنذرهم في تلك الأزمان إبراهيمُ ﷺ، ثمَّ إسماعيلُ ﷺ، ثمَّ مَن بعدَهم من صالحي ذرّيَّتهم إلى زمان عمرو بنِ لُحَيّ[2].

سِرُّ التَّعبير بقوله: ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾ دون (مِنْ بَشيرٍ):

التَّعبير بالنّذارة أوفـى دلالـةً في خطاب المشركين المعاندين

اكتفى التَّعبيرُ القرآنيُّ بقوله: ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾ دون أن يَقْرُن معه (مِنْ بَشيرٍ)، كما هي عادة القرآن في الجمع بينَ البشارة والنِّذارة في وظائف الرُّسل، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: 28]، وغيرِها منَ الآيات؛ لأنَّ السّياق هنا في خطاب المشركين المُكذِّبين الجاحدين، والمعاندين بالأعذار الواهية، والحُجَج الباطلة، فكان التَّعبير بالنّذارة هو الأوقع في تخويفهم وتحذيرهم منَ الجُحود بآيات الله والاستهزاء برسله. وفيه أيضًا

(1) ابن جزيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/ 175.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 306.

مناسبةٌ لما سبق من ذِكْر علَّة إرسالِ النَّبيِّ ﷺ، وهي الإنذار في قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾، فناسب هذا ذلك.

سِرُّ الفصل في ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾:

شِبهُ كمالِ الاتّصال، موفٍ بالإبانة عن رجاء التّذكّر

فُصِلَ قولُه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ عن قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾؛ لما بين الجُملتين من شِبه كمال الاتِّصال؛ لأنَّ قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، فالجملة الأولى أثارت سؤالًا في النَّفس، تقديره: ما سببُ الإنذار، فجاءت الجملة الثّانية جوابًا لهذا السُّؤال، والتَّقدير: (لتنذرهم لعلهم يتذكَّرون).

سِرُّ التَّعبير بالتَّذكُّر دونَ غيره:

بيانُ أنّ التّذكُّر نظرٌ في الأسباب الّتي أفضت إلى ضلالهم

آثرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالتَّذكُّر في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ دون غيره؛ لأنَّ التَّذكُّر هو النَّظر العقليُّ في الأسباب الّتي دعت إلى حكمة إنذارهم، وهي تناهي ضلالِهم فوقَ جميع الأمم الضّالَّة، إذ جمعوا إلى الإدراك مفاسدَ جمَّةً؛ من قتل النُّفوس، والارتزاق بالغارات والمقامرة، واختلاطِ الأنساب، وانتهاكِ الأعراض، لذلك كلِّه وجب تذكيرُهم بما فيه صلاحُ حالِهم[1].

سِرُّ ورودِ فعلِ التَّذكُّر مضارعًا:

تَجدُّدُ التّذكُّرِ والاعتبارِ سبيلُ النّجاة

التَّعبير بالمضارع في ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ إفاد التَّجدُّدَ والاستمرارَ في الانتفاع من آيات الله تعالى الكثيرةِ والمتنوِّعةِ والمتجدِّدة، فاللهُ تعالى أكثرَ من ذِكْر الأدلَّة على وحدانيَّته وصدقِ دعوةِ نبيِّه ﷺ، ما لو صَدقَ المتأمِّلُ في تدبُّرها لانتفع بها قلبُه، ولأسلم طوعًا لربِّه. كما أنَّ فيه حضًّا لكلِّ من أعرض وجحد، بأن يرجع إلى ربِّه ويتوب، فآياتُ اللهِ كثيرة تقيم عليه الحُجة، وتقطعُ عنه العُذرَ، وفيه أيضًا تعريضٌ بالمشركين بأنَّهم لم يهتدوا بالآيات الواضحات على كثرتها وتنوُّعها.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 134.

دلالة حذف متعلَّق ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾:

في الحذف إيجازٌ وتعميم، وهو مفيد في فهم المراد

حُذِفَ متعلَّق الفعل ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ للعِلْم به؛ إذ قد دلّ السّياقُ عليه في قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾، فيكون تقديرُ الكلام: (يتذكَّرون بالآيات والنُّذر التي جاء بها سيّدنا محمّد ﷺ)، فكان في الحذف إيجازُ اختصار، وفي الحذف أيضًا اهتمامٌ بنفس الفعل وقصدٌ إليه، وهو فعل التَّذكُّر؛ لأنَّ المقام هو مقام حضٍّ على وقوع التَّأمّل والتَّدَبُّر في آيات الله تعالى، والتَّعريضُ بالذين غَفَلوا عن هذا التَّذَكُّر، فلم ينتفعوا بدعوة النَّبيِّ ﷺ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القوم والأُمَّة:

الأمّـــةُ أوسـع مـعـنًـى مـنَ القوم، وكلاهما لفظٌ قرآنيّ مُعَبِّر

قومُ كلِّ رجلٍ شيعتُه وعشيرتُه، ويُطلق على الرِّجال دون النِّساء[1]، والقوم في الأصل مصدر قام، ثمَّ غلب على الرِّجال دون النِّساء، ولذلك قابلهُنَّ به في حديث: «إنّ نَسّاني الشّيطانُ شَيْئًا مِنْ صَلاتي فلْيُسَبِّح القومُ، ولْيُصَفِّق النِّساءُ»[2]، وسُمّوا بذلك لأنَّهم قوّامون على النِّساء بالأمور التي ليس للنِّساء أن يقمن بها[3]. وقد تدخل النِّساء تحت القوم على سبيل التَّبعيَّة، لأنَّ قوم كلِّ نبيٍّ رجال ونساء[4]، وقومَ كلِّ نبيٍّ مَن أُرسِل إليهم من أهله وعشيرته، ومَن يسكنون معه في مكان واحد.

أمّا الأمَّةُ: فلها معانٍ كثيرة[5]؛ فقد تُطلَق على المجموعة من النّاس، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: 23]، وتُستَعمل الأمَّة فيمن تجتمع فيه الصِّفاتُ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قوم).
(2) أخرجه أبو داود في سننه، برقم: (2174)، وأحمد في المسند، برقم: (10977).
(3) ابن الأثير، النّهاية: 4/ 125.
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (قوم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أم).

الحميدة، كما في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النّحل: 120]، وتستعمل في معنى الدّينُ، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزّخرف: 22]، وتستعمل بمعنى الحين كما في قَوْله تَعالَى: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: 45]، أيْ: بَعْدَ حينٍ. وتُطلَق الأمّةُ على جماعة العلماء، كما في قوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ [آل عمران: 104]، وقد تُطلَق الأُمَّة على كلِّ من آمن بالنَّبيّ ﷺ، سواء كان من قومه أو لا، كما في حديث الشّفاعة: «أُمّتي أُمّتي»[1]، فهو ﷺ يشفع لمَن آمن به؛ فهي على هذا أوسع معنًى منَ القوم.

النّذير والرّسول:

كلّ رسولٍ منذرٌ، وليس كلُّ منذرٍ رسولًا

النّذير: مشتقٌّ منَ النّذارة، و(نذر) كلمة تدلُّ على تخويفٍ أو تخوّفٍ، ومنه الإنذار: الإبلاغ، ولا يكاد يكون إلّا في التَّخويف. وتناذروا: خوَّف بعضُهم بعضًا[2].

أمّا الرَّسول: فمشتقٌّ مِنَ الرَّسْلِ، وهو الانبعاث والامتداد، تقول: جاء القوم أرسالًا، أي: يتبع بعضُهم بعضًا[3]، والرّسول: الذي يتابع أخبارَ الذي بعثَه؛ أُخِذَ من قولهم: جاءت الإبل رَسَلًا، أي: متتابعةً[4]. ثمَّ إنَّ الرّسول يستلزم أن يكون نذيرًا، بعكس النَّذير، فلا يستلزم أن يكون رسولًا؛ فكلُّ رسول نذير، وليس كلُّ نذير رسولًا.

(1) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (7510)، ومسلم في حديث الشّفاعة، برقم: (193).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نذر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رسل).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (رسل).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والأربعون،
سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والأربعون، سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 41 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-92-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 41 : المجلد الحادي والأربعون، سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-92-1
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-2914887 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»